(( آفات القلوب ))

عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

الأولى

خبر عجيب ، وفوز عظيم..

فتعالوا بنا معاشر المؤمنين لنقف سوياً على هذا النبأ العظيم ، حيث يجلس النبي في مسجده الشريف وقد أحاط به أصحابه إحاطة السوار بالمعصم ، وفجأة ! وإذا بأعين الصحابة تشخص لباب المسجد بنفوس متلهفة، والنبي يقول لهم وهو الذي لا ينطق عن الهوى:

« يدخل عليكم من هذا الفجّ رجل من أهل الجنة »

يا لله العجب ! رجل من أهل الجنة يعيش بينهم ، ويتقلب بين أظهرهم ، فتلهفت إليه الأنصار ، واشتاقت إليه النفوس ، وفتح الباب ودخل رجل شهد له النبي بأنه قد وضع قدمه في الجنة.

أهو من الخلفاء الراشدين ؟ كلا ..

أهو من العشرة المبشرين بالجنة ؟ لا ورب الكعبة ..

بل هو رجل منهم يعرفونه ..

دخل المسجد مشمراً ثيابه ، يتقاطر الوضوء من لحيته ، ممسكاً نعليه بشماله ، فبات الصحابة يدوكون ليلتهم ، يا ترى ما هو أرجى عمل عمله هذا الرجل ؟

فلمّا كان من الغد وإذا بالنبي يدفع الصحابة إلى موقف الأمس فيقول : « يدخل عليكم من هذا الفجّ رجل من أهل الجنة »

لا إله إلا الله .. يا ترى من الرجل الآخر ؟

عرفنا ذاك الرجل فمن هذا ؟

وإذا برجل الأمس يدخل ممسكاً نعليه بشماله يتقاطر الوضوء من لحيته .

وفي اليوم الثالث على التوالي وإذا بالنبي يخاطب أصحابه : « يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة »

فتشخّص الأبصار فإذا هو هو رجل الأمس وبهيئته المعروفة .

معاشر المؤمنين إن رجلاً يبشّر بالجنّة لثلاث ليال متعاقبات على لسان رسول الله لحرّي أن يقتص خبره ، ويقتفى أثره .

وإذا بالصحابي الجليل عبدالله بن عمرو بن العاص تأبى همته العليّة إلاّ أن يكشف عن حقيقة صنيع هذا الرجل ، فمشى إلى بيته ، وقال : " إني قد لا حيت أبي " يعني تخاصمت مع أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه البيت ثلاثاً فإن رأيت أن تأويني في بيتك فعلت ، فرحب به وأكرمه ، وبات عبدالله بن عمرو بن العاص يترقّب صنيعه، ويسبر حاله، وينظر أرجى عمله ، فترقبه لعلّه يحي الله كله بالقيام ، والنهار بالصيام فلم يفعل .

غير أن هذا الرجل الصالح ، كلما تقلب على فراشه ذكر الله ، وكلما أفاق من نومه ذكر الله، فانتظر ليلة وليلة وأخرى فلم يرى من العمل الصالح ما يعجب منه .

فلما مضت ثلاث ليال ، كشف عبدالله بن عمرو بن العاص عن حقيقته ، وقال : يا أخي أما إنه لم يكن بيني وبين أبي خصومة أو خلافاً، ولكني سمعت رسول الله يقول عنك في ثلاثة مجالس متتاليات « يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة »

فكنتَ أنت الداخل في كلّ مرّة ، فأخبرني بما نلت ذلك ؟

فقال له : ما هو إلا ما رأيت ، فلما انصرف عبدالله بن عمرو بن العاص ناداه الرجل فقال : تعال ، ما هو إلا ما رأيت غير أني أبيت حين أبيت وليس في قلبي غشّ ولا حسد ولا حقد على أحدٍ من المسلمين ولا أحسد أحداً من الناس على خير أثره الله به ، فخرج عبدالله بن عمرو بن العاص من عنده وهو يقول : أما إن هذه هي التي بلغتك ، وهذه هي التي لا نطيقها ، هذه هي التي بلغتك وهي التي لا نطيقها .

تمسي وتصبح ، وتغدو وتروح ، وتضع جنبك على فراشك بقلب سليم .

هذه التي بلغتك ومن ذا الذي يطيقها ؟

معاشر المؤمنين .. إنها صورة معبّرة ومشهد عجيب ، صورة لذلك الرجل الطيب النقي ، السليم القلب ، الذي يطوي صدره على قلب صافٍ كالزجاجة ، ليس فيها غلٌّ ، ولا حقدُ ولا حسدٌ ، ولا غشٌّ ، ولا شحناءٌ ، ولا بغضاءٌ .

إن هذا الرجل قد تعبدّ الله بعبادة عظيمة الشأن ، قلّ من يتفطن لها فهي تلامس القلب ، الذي هو محل نظر الرب « أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ » متفق عليه .

معاشر المؤمنين ..

هلا تفقدنا قلوبنا ؟

هلا تبصرنا بدائها ودوائها ؟

هلا وقفنا مع أمراض القلوب التي تتسرب إليها على غفلة منّا فتخالطُ مشاعرنا وتنمو في صدورنا ؟

معاشر المؤمنين ..

إن معاصي القلوب هي وربّ الكعبة الهالكة المهلكة .

معاصي القلوب هي أشد وأنكأ من معاصي الجوارح .

فالكبر ، والغرور ، والعجب ، والرياء ، وحبّ الظهور ، والاحتقار للآخرين أمراض تخون العبد عند خاتمته .

هلا تفقدنا القلوب من إثم الحسد والبغضاء ، والحقد ، والشحناء ؟

هذه والله هي الذنوب المعضلات التي تذهب بفضل الصيام وثواب القيام وتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب بل وتحلق الدين حلقاً من قلب صاحبه .

استمع إلى نبييك وهو يحذر من معاصي القلوب فيقول : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» رواه مسلم .

ويقول : « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » رواه أصحاب السنن وصححه الألباني .

ويقول : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ، الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنَّهَا تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا بِي حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ: أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ »

رواه البيهقي في شعب الإيمان (9/13) .

ويقول : « تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا » رواه مسلم .

نُذُر نبوية مخيفة ، تحذرنا من غفلتنا عن أمراض القلوب .

معاشر المؤمنين ..

إن القضيّة جدٌّ لا هزل فيه ، ووعد ووعيد ، إننا يا أهل الصيام والقيام ، والصدقة والإحسان أمام أدواء خطيرة ، والطامة الكبرى أن هذه الآفات الخطيرة تتسرّب إلى قلوبنا على حين غفلة منّا ، بل ربما رضينا بها تحت نزغ الشيطان ، وتحريشه الدائم ، وأزٍّ جنود إبليس أزّا ، لنستمع إلى نبينا وهو يحذّر عن مرض من أمراض القلوب فيقول عن الرياء كما يحكي أبوسَعِيد الخدري ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» رواه ابن ماجه وصححه الألباني .

يا ترى كم تزلّ بنا القدم في آفة الرياء وإظهار العمل الصالح، وحبّ المدح والثناء ؟

يا ترى كم نصيبنا من آفة الحقد والشحناء والبغضاء والحسد ؟

والله يا قوم أخشى ما أخشاه أننا تألفنا مع هذه الذنوب حتى غدت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا ، فتأتي الأفراح والأتراح ، وتمضي السنون والأعوام والقلوب في حقدها وحسدها وشحنائها وبغضائها .

بل ربما رأيت من يبرر لنفسه هذه الخطايا ، وحقاً ما أيسر ذلك على صاحب الهوى أن يصغ لنفسه المعاذير ويفتح لها سبل الإقناع ، ويروج لنفسه ولمن حوله هالةً من الضباب ، تستر عن نفسه أولاً ، وعن من حوله خبثه وحقده .

معاشر المؤمنين ..

إن الدين لا يُخدَعُ ، والله - جل جلاله - لا يخادع ، لذا نرى أن العدوات التي يفرزها الحسد تغطى بقمص متعددة من الغيرة ، فتارة باسم الغيرة على الدين ، وتارة باسم الصالح العام ، ألبسة فضفاضة يكسى بها داء خطير فتاك اسمه الحقد والحسد .

بل ائذن لي أخي المسلم لو قلت لك أن البعض منا قد يستمع إلى هذا الكلام دون أن يشعر نفسه أن هذا الأمر يعنيه وأنه واقع فيه وأنه خطر عظيم على قلبه .

خذ على سبيل المثال بعض ظواهر خطايا القلوب .

الحسد .. نتحدث عنه وكأنه كابوس لا يرى إلا في الأحلام ، وننسى أن الحسد يتسرب إلى قلوبنا من حيث نشعر ولا نشعر .

الحسد يأتي إلى قلوبنا من خلال الفرح بزلات الأقران .

الحسد يأتي من خلال الفرح بأخطاء الزملاء والآخرين .

الحسد يأتي من خلال الندم على تفوق الأقران وأبناء الجيران .

وأقسم بالله لو كشف كلّ واحد منّا عن حقيقة باطنه وما يخفيه لوجد أنّ كمّا هائلاً من العداوات الخبيثة التي نبتت في نفسه يقودها الحسد المذموم .

خذ على سبيلِ المثالِ العُجب والتعالي، إن العجبَ والغرورَ والتعالي قد لا يخرجُ بصورةِ المدح والإطراء على النفس، لكنَه يخرجُ بصورةٍ التنقصُ للآخرين، واحتقار ذواتهم، وأنسابهم ، وتقليل جهودِهم، وعدّ عيوبِهم، لماذا؟ حتى يتساقطَ هؤلاءِ كلِهم ويبقى المتحدث، يقولُ بلسانِ الحالِ أنا الكاملِ .

أَنَا ابنُ جَلَا وطلّاعُ الثَّنايَا \*\* متَى أضَعِ العِمامَةَ تَعرِفُوني

خذ مثالاً آخر: الكبر، هذا الداء الإبليسي الخطير ، وليس شرطاً أن يكون الكبر في مشيةِ المتبختر، أو في الأنفُ المشمخر، أو السيارة الفارهة ، كلا فقد يظهرُ الكبرُ في صورةِ الاستعلاءِ عن الحقِ بردِه، قد يظهرُ الكبرُ في صورةِ احتقارِ الناسِ وغمطِهم والنظرِ إليهم بازدراء وإن مشى صاحبُه الهوينا وإن شمّر ثيابَه ونكسَ رأسَه.

ولذا قال النَّبِيِّ : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ....

الثانية

خذ مثالاً آخر نختم به بعض أخطر أمراض القلوب وهو الحقد ، والشحناءُ ، والبغضاء ، فهي الداء الخبيث الذي دبّ وفشا بيننا فعلى حظوظٍ من الدنيا تافهة، تفرقت وتمزقت أسر شذر ومذر .

إنه الحقد، والشحناء، والبغضاء، الحقد آفة من الآفات ، وجمرة نارية محرقة للأسر ، والأفراد ، وجرثومة خطيرة خارقة للقلوب ، الحاقد ارتكب جرماً عظيماً ، وأتى ذنباً شيطانيّاً وسلك مسلكاً فرعونيّاً ،

الحقد داءٌ دفينٌ ليس يحمله \*\*\* إلا جهولٌ مليءُ النفس بالعلل

عبد الله ..

إن الخصومة والشحناء إذا نمت وغارت جذورها ، وتفرّعت أشواكها قادت العبد حتماً إلى اقتراف الصغائر، والجرأة على الكبائر، وسقط العبد في حال من القسوة والعناد، والله لم يرضى لعباده مهما كان بينهم من الخلاف والنزاع أن تقطّع أواصرهم فالنبي يقول:

«لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ» رواه مسلم .

ليكن شعارك ﭽ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﭼ فصلت: ٣٤

إذا بادلك أحدهم بالكراهية فبادله بالمحبة.

إذا أظهر لك البغض فأظهر له الحب الصادق.

إذا أشهر سيف الحقد ، والانتقام فأرفع سيف العفو والتسامح.

ليكن شعارنا (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) .

هل سمعتم بأبي دجانة صاحبِ العصابة الحمراء صحابي جليل حمل سيف رسول الله في غزوة أحد ، وهو يرتجز متبختراً في ساحة المعركة :

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي ... وَنَحْنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ

أَلَّا أَقَوْمَ الدَّهْرَ فِي الْكَيُّولِ ... أَضْرِبُ بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ

هذا الصحابي التقي النقي ، حضرته الوفاء ، وإذا بوَجْهه يَتَهَلَّلُ فَقِيلَ لَهُ: مَا لِوَجْهِكَ يَتَهَلَّلُ؟ فَقَالَ: مَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٌ أَوْثَقُ عِنْدِي مِنَ اثْنَتَيْنِ. أَمَّا إِحْدَاهُمَا فَكُنْتُ لا أَتَكَلَّمُ فِيمَا لا يَعْنِينِي. وَأَمَّا الأُخْرَى فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيمًا.

الله أكبر .. يا معاشر المؤمنين ، لم يفتخر أبو دجانة بصيامه ، ولا بقيامه ، ولا بجهاده في أحد ، وإنما ذكر سلامة صدره ، وطهارة قلبه .

واستمع إلى نبيك وهو يُسأل من أصحابه -: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ". قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: "هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ" رواه أصحاب السنن وصححه الألباني في السلسلة (948) .

فأنظر كيف أن براءتَه من الإثمِ والحقد والحسد أوصلتَهُ إلى رتبةٍ شريفةٍ منيفةٍ وهي أن يكون أفضلَ الناس.

إن الأمرَ الذي ينبغي أن نعيَه هو أننا بأشد الضرورةِ إلى تفقدِ خطراتِ القلوب وتصفيتِها وأن يعلمَ كلُ منا أنه يومَ يدبُ إلى قلبِه شيءُ من خطايا القلوب فإن معنى ذلك أن النارَ تشتعلُ في ثيابِه ويوشكَ أن تُحرقَ بدنَه، ولذا فإن البحثَ عن أسبابِ تزكيةِ القلوبِ وتطهيرِها أمرُ ينبغي أن نجدَّ في بحثه، فأوصيك ونفسي بالإكثار من ذكر الله وقراءةِ القرآن.

ﭽ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﭼ يونس: ٥٧

ثانيا : الدعاء بطهارة القلب ، وزكاة النفس

ﭽ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲﭳ ﭼ النور: ٢١

ثالثا المجاهدة:

فقد يجاهدُ الإنسانُ نفسَه على الصيام، بل وعلى قيامِ الليل، ولكنَه يضعفُ ويجهدُ عن مجاهداتِ القلب، واللهُ سبحانَه يقول: ( وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)، ويقول: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ \* وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)، فالأمر عظيم ويحتاجُ إلى صبرٍ عظيم ، وجهدُ ومجاهدة.

سادسا الإخلاص:

ذاك الإكسيرُ العجيب، فإذا توفر الإخلاصُ لدينِ اللهِ في القلب زال الكبرُ وحل التواضعُ مكانَه، وزالت الأحقادُ والبغضاءُ منها وحل الوئامُ والودادُ مكانَها، وزال حبُ الدنيا والتطلعُ إلى مناصبِها ومغرياتِها وحل محلَ ذلك التطلعُ إلى مرضاةِ الله والنجاةُ من عقابِه ووعيدِه، وزالت العصبيةُ والحمية بأشكالِها وألوانِها وحل مكانَها الولاءُ للإسلامِ من حيثُ هو إسلام.

إن الإخلاصَ كلمةُ سهلةُ على اللسانِ، وحبيبةُ إلى القلوب، ومطربةُ للأسماع، وهي من أجل ذلك من أكثرِ الكلماتِ تداولا وتكرارا، ولكن معناها من أعظمِ المعاني أهميةً في الحياة، ومن أشقِها على النفوسِ عند التطبيق.

أيها الأحباب، وبعد نهايةِ هذا التطواف فعلى العهدِ فلنفترق، عهدُ التفقدِ لخطايا القلوب، عهد العفو والصفح والمضي في تطهير النفوس من أحقادها وشحنائها .